استخدم كعنصر زخرفى فى مبانى وسط البلد

إذا كان الطوب الأحمر يستمد مكانته من قصر استخدامه فى تشييد المعابد والمقابر فى مصر القديمة، بعد أن حرم عامة الشعب أنفسهم من بناء منازلهم به، اعتقادا منهم أنه لايصح أن تكون بيوتهم مثل دار الخلود التى يسكنها الإله ابن الفرعون!

وقد استمر هذا الأمر آلاف السنين.. لكن يبدو أن الحرمان الطويل دفع بالمصريين البسطاء إلى بناء بيوتهم بالطوب الأحمر (دون بياض) منذ عشرات السنين.. هل بسبب اختفاء الفرعون وبيته الكبير وبذلك أصبح لهم الحق فى استخدامه لإقامة مبانيهم ومنشآتهم؟ أو ظنا منهم أن بيوتهم لاتقل منزلة عن تلك المعابد والجبانات!. لكن تبقى الأسباب الحقيقية وراء استخدامه بهذه الصورة السيئة التى تفتقد إلى الذوق العام والنسق الحضارى.

وهذا التحقيق يكشف كيف فقد الطوب الأحمر مكانته على يد المصريين فى السنوات الأخيرة.

رغم ضياع عرشه:

الطوب الأحمر على واجهات مبانى

يمثل الطوب الأحمر أحد أقدم المواد المستخدمة فى البناء منذ بداية تاريخ البشرية.. والطوب لفظ مأخوذ عن اللغة المصرية القديمة (دوب) ثم حرفت ونطقت طوب وكان يصنع من طمى النيل المتوافر بكثرة فى البيئة المحيطة بالمصرى القديم ورغم ذلك رفض لمدة تزيد عن خمسة آلاف سنة استخدامه فى بناء منزله، اعتقادا منه أن دار الخلود ليست فى الحياة الدنيا ولكنه اكتفى ببناء قصر الفرعون أو البيت الكبير بالطوب الأحمر والحجر وذلك لأن ساكنه الإله وكذلك بنى المصرى القديم المعابد والمقابر بالطوب الأحمر، أما منزله فبالطوب اللبن!

ولوحدات البناء من الطوب الأحمر عدة مزايا خصائص أولها كونها مصنعة من مادة موجودة فى الطبيعة مع سهولة تشكيلها بعدة صور ومقاسات، إضافة إلى قوتها ومكانتها وقدرتها على تحمل الحرارة، علاوة على تجانسها فى البناء مع المواد الأخرى مثل الأحجار والأخشاب.

وقد خضع الطوب الأحمر - ككل شىء من نتاج الإنسان - إلى سنة النشوء والارتقاء وتنوعت أوصافه وأشكاله باختلاف المكان والزمان وأسهمت الثقافة والذوق للمصريين فى ذلك ولكن بالرغم من كل مظاهر الاختلاف فإن أوجها من الشبه تظل قائمة بين قوالب الطوب الأحمر عبر العصور.

وذلك أن فنون العمارة كانت تتسرب من بلد لآخر عبر الحدود ويجرى اقتباسها وتطويرها قليلا أو كثيرا.. فكما يقول الأستاذ محمد التهامى أبوالعينين مدير عام آثار رشيد أن توفر الطمى كان السبب وراء انتشار صناعة الطوب (الآجور) فى المدن المصرية والتى كان يراعى أن تتم صناعته من طينة نقية خالية من الشوائب ومضغوطة جيدا، كما كان يعاد حرق كميات من الطوب حتى يتحول لون وجهها إلى اللون الأسود وكانت تستخدم فى واجهات العمائر بالتبادل مع قوالب الطوب الأحمر، كما نحت وجه الطوب، فأطلق عليه الأهالى (النجر) أى المنحوت ولذلك سمى هذا النوع من الطوب بالمنجور والذى استخدم بلونيه الأحمر والأسود مع المونة المكونة من القصرمل (خليط من البوص المحروق الناعم والحمرة المتخلفة من حرق الطوب الأحمر) والجير السلطانى فى بناء العمائر مع استخدام الجبس لتنفيذ اللحمات البارزة بين مدامات الطوب. كما استخدمت الميد الخشبية التى تتخلل الجدران لتقويتها وهذا العنصر استمد من العمارة الساسانية فى إيران.

وقد عرف استخدام قالب الطوب المنجور بلونيه

عفاف الدهشان

الأحمر والأسود كعامل زخرفى ومعمارى فى نفس الوقت منذ وقت مبكر فى العمارة المصرية.

كما يؤكد أبو العينين وذلك فى واجهات المبانى وخاصة فى مداخل العمائر الدينية والمدنية.. وقد انتشر هذا الأسلوب المعمارى فى جميع عمائر الوجه البحرى فى العصر العثمانى وخاصة فى رشيد ودمياط، والذى يعتبر استمرارا لأسلوب التضاد اللونى الذى ظهر بالعمارة الرومانية والبيزنطية ويتلخص فى اختلاف لونى مواد البناء وهذا يتضح جليا فى أبراج حصن بابليون بمصر القديمة.

إلا أن العثمانيين قاموا بتطويره واستخدموا الطوب فى أعمال الزخرفة وأضافوا للجدران زخارف الجبس وهذه الطريقة فى فن العمارة، عرفت فى العمائر التركية منذ أوائل القرن الـ ١١ الميلادى.

فى مصر القديمة استخدم فى بناء المعابد والمقابر

والفرق شتان مابين استخدام الطوب فى عمائر العصر العثمانى وما يحدث الآن فى الوقت الراهن.. كما يرى محمد أبو العينين ففى السابق تم تطويره واستخدامه كعنصر جمالى للارتقاء بالعمارة، أما فى العصر الحديث لم نقتبس من الحضارات المجاورة إلا المستخدم فى العمارة الخديوية التى استمدت عناصرها من فنون عمارة عصر النهضة فى إيطاليا وفرنسا وانجلترا ويظهر هذا بوضوح فى طرز وزخارف قصور الأمراء والباشوات من أسرة محمد على حتى الملك فاروق وذلك نتيجة البعثات العلمية من مهندسين وفنانين إلى تلك البلاد.

ولكن المؤسف استحواذ الأسرة العلوية على استقدام المهندسين الأجانب لتقليد الفنون والعمارة الراقية فى بلادهم وبالطبع كان لديهم المال والجاه وتركهم الشعب يبنى عمائره بأدواته البسيطة والفقيرة.

عكس عمائر المدن فى العصر العثمانى التى تكاد تتشابه فى الطرز المعمارية مع مثيلتها فى البلدان المجاورة.

ولم يقتصر الأمر على عمائر الأسرة العلوية كما يقول الدكتور مصطفى غريب أستاذ العمارة بكلية الهندسة جامعة الأزهر ولكن استخدم الطوب الظاهر النبيتى (بدون بياض) فى واجهات عمارات ميدان مصطفى كامل بالقاهرة وهو مستورد من أوروبا فى أوائل القرن الـ ١٩ الميلادى وهو مأخوذ من طرز العمارة الإنجليزية وأيضا دمج هذا الطوب النبيتى الظاهر مع عنصر الخشب فى واجهات مبانى بورسعيد والإسماعيلية والسويس القديمة. وبالطبع كلها بدائل معمارية ترتبط بالارتفاعات الأقل.. أما العمائر التى تصل ارتفاعاتها لـ ١٤ طابقا، فمن الصعوبة بمكان استخدام الطوب الظاهر كعنصر زخرفى، فسيكون شكله قبيحا ولكنه يليق بقرية سياحية مبانيها من دور أو اثنين. وجاءت فترة على المصريين أول ما استحدثوا الطوب الرملى والطوب الوردى أن استخدموهما فى واجهات المبانى.. كما اعتمدت هيئة الأبنية التعليمية الطوب الوردى كواجهات خارجية فى مبانى المدارس (بدون بياض) إلى جانب طلاء القواعد والكمرات باللون الأبيض، وباستخدامه يتم ضغط تكاليف البناء، كما أن وجوده يمثل عنصرا زخرفيا وجماليا مقبولا نوعا ما.

أما ترك واجهات المنشآت على الطوب الأحمر، فيرجعه الدكتور غريب إلى أن أصحاب هذه المنشآت يبنونها على مراحل مختلفة، حسب قدرتهم المادية بمعنى مرحلية البناء وبالتالى تأتى الاحتياجات فى المرتبة الأعلى والأرقى وتليها الجماليات التى تتحكم فيها الماديات ويكفى وجودها داخل المنشآت دون اعتبار للمنظر الخارجى. إلى جانب انخفاض دخول أصحاب المبانى مما يجعلهم يكملون الضروريات وحين ميسرة يزينون ويجملون الواجهات ولكن يكونون قد باعوا هذه المبانى أو تم تسكينها، فينتهى الأمر إلى تركها بدون بياض وخلاص!! وبالطبع من ضمن اللخبطة فى

قد يبقى هذا المنزل على الطوب الأحمر

كل العشوائيات تعتمد عليه
فى الواجهات الخارجية

المصريين

حياتنا أن الطابع العمرانى للمدن تتحكم فيه الإمكانيات المادية لأصحاب المبانى.

بالإضافة إلى قصور الغطاء التشريعى وذلك من خلال افتقاد قانون البناء للقواعد الملزمة التى تجعل صاحب المنشأة يشطبها من الخارج، كما أن الأحياء والإدارات الهندسية بها تهتم بعروض المناور ونسبة البناء على الأرض والارتفاعات ولكنها لاتهتم إطلاقا بالواجهات الخارجية ولاتعطى مخالفة لمن لم يبيض المبنى خارجيا أو للواجهات التى لاتتوافق والطابع العمرانى للمدينة.

ونحن كمعماريين كما يوضح الدكتور غريب نجاهد لتطبيق القانون بصورة رادعة ضد المخالفين لقواعده ولكن الغطاء القانونى عندنا قاصر وقانون البناء سيكون أشد تنظيما إذا تم التأكيد على استكمال المبانى من الخارج ويقترح ربط دخول المرافق (كهرباء ومياه) إلى المنشآت بعد الانتهاء من تشطيب الواجهات لحماية وتقوية هذه المبانى.. ويتفق الدكتور محمد عبد الباقى أستاذ التخطيط العمرانى بهندسة عين شمس ورئيس مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية مع رأى الدكتور مصطفى الغريب فى إن انتشار استخدام الطوب الأحمر فى الواجهات (بدون بياض) فى المناطق العشوائية يعود فى الأساس إلى قلة الإمكانيات المادية لأصحاب تلك العقارات وهدفهم من وراء ذلك التوفير فى مصاريف البناء من خلال إلغاء البياض الخارجى، رغم أنه فى العادة تلاصق المنشآت فى هذه المناطق مع بعضها البعض الأمر الذى يلغى تبييض الواجهات الجانبية والخلفية ومع ذلك تترك الواجهة الأمامية على الطوب الأحمر.

اكتسب مكانته من خصائصه وتجانسه مع مواد البناء الأخرى

وللأسف الشديد .. فإن هؤلاء الملاك بالإضافة لكونهم يهدفون للربح وخفض التكاليف إلا أنهم فى الوقت نفسه ينقصهم الذوق الهندسى والمعمارى وعدم اهتمامه بالنواحى الجمالية التى ينظر إليها كرفاهية يمكن الاستغناء عنها. وإذا كانت الدولة تسعى للحفاظ على النسق الحضارى للمدينة فإنه من باب أولى أن تهتم بثقافة المواطنين وتوعيتهم، حيث إن المجتمع الجاهل وغير المثقف تنعكس توجهاته وأفكاره على عمارته التى هى مرآة لهذا المجتمع.

كما أن مستوى الحرفيين فى مصر أصبح متدهورا كما يقول الدكتور عبدالباقى والسبب عدم وجود مراكز تدريب حرفى تؤهل العمال على الجديد فى مجال البناء والتشييد والدليل على ذلك أننا الآن نتوجه لاستخدام طوب مسامى خفيف واقتصادى وعازل لكل من الحرارة والصوت ومقاوم للحريق ويعتبر بديلا سحريا للطوب الأحمر فهو يوفر ١٥٪ من الحديد والخرسانة فى الهيكل الإنشائى وهذا يمثل مبلغا كبيرا فى تكاليف البناء، كما يوفر من ١٥ : ٢٠٪ من إجمالى التكاليف اللازمة للمنشآت.. ولعدم معرفة البنائين به يتم الإحجام عن استخدامه، رغم وجود مصنعين لإنتاج هذا الطوب فى مصر.. أما المهندس صلاح حجاب الخبير الإسكانى فلا يلقى باللوم على أصحاب هذه المبانى، فهؤلاء عايزين سترة وحاجة تلمهم وكويس قوى إنهم بنوها هكذا، عندما قصرت الدولة فى بناء وحدات سكنية لهم أو توفير أراض مخططة ومرافق لهم. وأرجع السبب لافتقارهم للذوق العام العمرانى ليس نتيجة للفقر فقط ولكن لعدم وجود نماذج ناجحة بسيطة تشجع على التقليد والاقتباس.. وهناك أجهزة فى الدولة مثل المركز القومى لبحوث الإسكان والبناء مفروض أن يقدم مشروعات إرشادية لذوى الدخول المنخفضة لمحاكاتها ويمكن أن تشكل وجدانه وذوقه العام.

بينما ترى الدكتورة ماجدة متولى أستاذ الإسكان والتنمية العمرانية بالمركز القومى لبحوث الإسكان والبناء أن استخدام الطوب الأحمر فى واجهات المبانى (بدون بياض) لانجده فى المناطق الحضرية وإنما العشوائية وغير الرسمية لأن منظره سيىء ويقلل من قيمة العقارات، فلابد من تشطيب الواجهات لأنها وراء بيع الوحدات بنظام التمليك.

كما أن الطوب الأحمر صناعته تدهورت وصغر حجمه ولا تجدين طوبة مقاسها مثل الأخرى، كما أن الحواف غير متساوية وهذا النوع من الطوب الردىء يفرول مع مياه المطر ولابد من البياض الخارجى لحماية المبنى وإطالة عمره.